الأدارسة في تاريخ المغرب

ثابت النسب وقواعد الانتساب

ذ. محمد البركة *

يعد القرن الثاني الهجري قرن التحول والتبدل في الجغرافيا السياسية والمذهبية للعالم الإسلامي، نظرا لطبيعة العلاقات التي صارت تربط أطراف هذا العالم فيما بينها، حيث تراوحت علاقة بلاد المغرب ببلاد المشرق بين الوصل (فكريا ومذهبيا) والفصل (سياسيا)، علاقة أثمرت قيام إمارات مستقلة، أسهمت في ظهورها عوامل عديدة (منها: المؤثرات المشرقية، والبعد الجغرافي، والتعدد القبلي، والزعامات المحلية والأخرى الوافدة، وخاصية الأمن والأمان، ...)، نتج عنها انتقال بلاد المغرب من التعايش القبلي والمذهبي إلى التعايش السياسي.

سياق التأسيس: (العصبية المحلية والنسب الشريف)

يعود تأسيس دولة الأدارسة إلى إيواء قبيلة أوربة بزعامة إسحاق بن محمد لإدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بعد فراره من معركة فخ ببلاد الحجاز يوم السبت 8 ذي الحجة عام 169هـ/ 785م. حيث دخل المولى إدريس في البداية طنجة لأهميتها وقتئذ ((وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب وأم مدنه، إذ لم يكن بالمغرب مدينة أعظم منها ولا أقدم، فلا وصلا أقاما بها أياما، فلم يجد بها مراده، فرجع مع مولاه راشد حتى نزل مدينة وليلي، وهي مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغروس والزيتون، وكان لها سور عظيم من بنيان الأوائل))، فنزل بها رفقة مولاه راشد بن منصة الأوربي عند صاحبها الأمير إسحاق بن محمد بن عبد الحميد وذلك في غرة ربيع الأول سنة 172هـ/ 788م).

بعد أن أظهر إدريس بن عبد الله لأمير أوربة أمره وعرفه بنفسه، جمع إخوانه وقبائل أوربة وعرفهم بنسب إدريس وفضله وقرابته من رسول الله ﷺ ودينه وكمال أخلاقه وفضائله، فبايعوه أميرا عليهم يوم الجمعة 4 رمضان 172هـ/ 5 فبراير 789م على ((القيام بأمرهم وصلواتهم وغزوهم وأحكامهم))، لتلحقها بعد ذلك بيعة كل من قبائل صنهاجة البرنسية، ومكناسة تسول، وملوية، وغمارة، وبذلك تمكن المولى إدريس الأول من تشكيل قوة عددية لبداية حملاته التوسعية الهادفة إلى إخضاع عدد من المناطق المجاورة باتجاه شالة، وجبال فازاز، وتادلة، وتلمسان، ...

تلقت الخلافة العباسية توسعات إدريس بن عبد الله بنوع من الريب والخوف من منافسته لها، فأرسل الخليفة هارون الرشيد سليمان بن جرير الشماخ لاغتيال إدريس، وهو ما تم عام 177هـ/ 793م، فكان لزاما انتظار كنزة النفزية أن تضع حملها، حيث أوصى شيوخ أوربة راشد بن منصت الأوربي بتدبير شؤون الدولة قبل أن يتم اغتياله، تطلعا للقضاء على نواة دولة شريفة النسب ببلاد المغرب.

* -أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل بمكناس.

بايع الأَوْرَبيون إدريس الأصغر بوليلي عام (188- 213هـ/ 803- 828م) رغم حداثة سنة (أحد عشر عاما)، مما أدى إلى الصراع بين أشياخ القبائل للاستفراد بالقرار، في وقت ظل العباسيون، عبر حلفائهم الأغالبة بإفريقية، مراقبين لشؤون الدولة الناشئة للنيل منها، فاستمالوا بعض الأشياخ، مثل ((بهلول بن عبد الواحد المطغري، وكان رئيسا معظما في قومه، وكان من خاصة المولى إدريس؛ فكاتبه ابن الأغلب عامل الرشيد على إفريقية واستهواه))، مما يكشف عن تداعيات التدخل العباسي- الأغلبي في شؤون دولة الأدارسة وعلى قاعدتها القبلية.

تأسيس فاس: (إقامة العمران وتأمين الإنسان)

لما توافد الوفود على إدريس ابن ادريس بن عبد الله بوليلي، وكثر الناس، و((رأى ادريس أن الأمر قد استوثق له وعظم ملكه وكثر جيشه وضاقت المدينة، عزم على الانتقال، ... فركب في خاصة من قومه ورؤساء دولته وسار حتى وصل إلى جبل زلاغ فأعجبه ارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه وكثرة محارثه)).

هكذا اتخذ إدريس الثاني عام 192هـ/ 808م مدينة فاس، فأحاطها بالأسوار، والأبواب، وأقام بها "جامع الأشياخ"، وفي العام الموالي بنى المدينة المعروفة بـ"العالية" في العدوة المقابلة للوادي، فأنشأ بها "جامع الشرفاء"، ودار الإمارة، والقيسارية، والأسواق، وأدارها هي الأخرى بالأسوار، والأبواب، وأقام بها دار السكة، ومكّن الناس من توسيع بنيانهم داخلها، مما يكشف عن وجود نظام تعميري واضح انتظمت عناصره المختلفة على ضفاف وادي الجواهر، حيث المسجد يحتل في هذا النظام النواة الرئيسية التي تدور في فلكها كل المرافق العمومية الأخرى.

وفي سنة 202هـ/ 818م هاجر أهل ربض قرطبة إلى فاس هربا من متابعة الحَكَم الربض لهم على إثر ثورة الربض، فاستوطنوا عدوة الأندلسيين، في مقابل عدوة القرويين التي خصصت للوافدين من القيروان. إضافة إلى الوافدين على المدينة من الأمازيغ والعرب واليهود من مختلف الفئات والصنائع والحرفيين.

لم تقف جهود إدريس الثاني عند هذا الحد بل توجت بتوجيه عدد من الحملات العسكرية نحو تامسنا والسوس وتلمسان بغاية ترسيخ نفوذ الدولة واستمالة القبائل لها، مما أسهم في انفتاح فاس تجاريا على تلمسان ونكور وسجلماسة، ومراقبة الطرق الرابطة بينها وبين شالة وأغمات ونفيس، وطنجة وسبتة.

لم يزل ادريس الثاني بفاس يدير أمور الدولة تحت سلطته إلى أن توفي سنة 213هـ/ 828م، ودفن بمسجدها بإزاء الحائط الشرقي، بعد أن خلف من الولد اثني عشر ذكرا.

نظام الحكم: (رسم القواعد وإدارة الولايات)

وكما أخذ ادريس الثاني من القبائل البيعة من أجل تولي تدبير أمورهم، وقدموه عليهم لنسبه الشريف اقتداء بما كان مع والده ادريس بن عبد الله، فقد سارع الأهالي والقبائل إلى بيعة محمد بن إدريس (213- 221هـ/ 828- 835م)، حيث تولى الحكم بعد وفاة والده إدريس الثاني، باعتباره أكبر أبنائه، وهو ما يوضح

تبني الدولة منذ بدايتها نظام حكم وراثي قائم على تولي الابن البكر لشؤون الدولة، تأمينا لوحدة البلاد وصيانة لها من الفتنة، وهو ما كان يجد قبولا عند الأهالي والقبائل، لحضور النسب الشريف.

وبتوجيه من كنزة جدة محمد بن إدريس الثاني عين ثمانية من إخوته ولاة لأقاليم الدولة، وأبقى هو على منصب الإمامة بفاس ونواحيها، حيث ولى القاسم بن إدريس ولاية (طنجة، وسبتة، وقلعة حجر النسر، وتطوان، وبلاد مصمودة، وما جاورها)، وعيسى بن إدريس ولاية (شالة، وسلا، وأزمور، وتامسنا)، ويحيى بن إدريس ولاية (البصرة، وأصيلا، والعرائش إلى بلاد ورغة)، عمر بن إدريس ولاية (ترغة، وبلاد صنهاجة، وغمارة)، وغيرها من الولايات التي امتدت على شساعة الدولة الإدريسيّة، في الشمال والجنوب والشرق والغرب.

والواضح أن تقسيم البلاد إلى ولايات يعبر على وجود حنكة في التدبير ورغبة في ضبط المجال، استنادا إلى النسب الشريف أولا، وإلى الرغبة في أن يستشعر الأمراء هيبة الحكم والإدارة بخوض تجربة بالمناطق التي ولوا بها ثانيا، وهو ما أسهم في ترسيخ مكانة الشرفاء في أوساط القبائل وحسم الصراع بين العصبيات، وكذا في إحكام التدبير الإداري الذي ساعد في إحداث حواضر جديدة وإحياء أخرى قديمة، كالبصرة، وتامدّلت التي أسسها عبد الله بن إدريس، وأصيلة التي بنى القاسم بن إدريس سورها وقصرها، وتْشُمِّسْ التي أعاد بناءها الأمير إدريس بن القاسم بن إبراهيم، وتيطاوين، وقصر مصمودة، وتيگيساس، وترغة، وأزمور، وتادلة، وسبتة، وطنجة، وشالة، وأغمات، ونفيس، وإيگلي.

لكن سرعان ما سارت الأمور على غير ما كان مطلوبا، حيث واجه الأمير محمد بن إدريس ثورة أخيه عيسى ببلاد تامسنا وأفشل محاولته للانفصال، قبل أن يخلفه في الحكم علي بن محمد (221- 234هـ/ 835- 848م)، الذي عرفت فترته هدوء، كما في عهد يحيى بن محمد (234- 245هـ/ 848- 859م)، الذي تقوت الدولة في عهده، وتزايدت المنشآت العمرانية داخل فاس وفي أرباضها، من قبيل جامع القرويين.

لكن بوادر الضعف بدأت تظهر في دواليب الحكم منذ عهد يحيى بن يحيى (ت. 245هـ/ 859م)، الذي أساء تدبير شؤون الدولة، فثارت عليه العامة بفاس، فتفككت الأقاليم على أيدي إخوته الذين استمالوا القبائل، في وقت تعاقب فيه أمراء ضعاف على حكم العاصمة فاس، رغم محاولة الأمير يحيى بن إدريس بن عمر استدراك الأمر بإقامة العدل بين الرعية؛ لكن دون جدوى نظرا للتدخل الفاطمي والأموي الأندلسي في شؤونها.

جامع القرويين: (العبادة والتعلم)

يعد بناء جامع القرويين على يد فاطمة الفهرية بنت محمد الفهري القيرواني الشهيرة بأم البنين سنة 245هـ/859م استجابة ملحة لحاجة الناس إلى أماكن العبادة أولا وإلى الرغبة في التعليم بالمدينة، حيث أسهم بناؤه في التعجيل بإقامة الحلقات العلمية وإعطاء الدروس التي كان يحضرها الطلبة والمهتمون، من كل بقاع العالم، مما جعله يتحول إلى أول جامعة حافلة بالعلم والعلماء.

وقيام فاطمة الفهرية بإنفاق مالها الذي ورثته من أبيها وزوجها على بناء جامع القرويين، الذي أخذ تسميته من الموضع الذي استقر به القادمون من القيروان، إنما يدل على وجوه البر والخير التي تنافس الناس فيها وقتئذ، وعلى حاجة الناس بعد توافدهم على المدينة إلى مسجد يتسع لهم، حيث بدأ حفر أساس جامع القرويين والعمل على بنائه بمتابعة وإشراف الأمير الإدريسي يحيى الأول، على مساحة أربع بلاطات وصحن صغير به بئر كان البناؤون يسقون منه الماء للبناء، فضلا صومعة غير مرتفعة بموضع القبلة.

عُرف جامع القرويين بنظام الكراسي العلمية المتخصصة التي جعلت منه جامعة متعددة الدراسات، قدر عددها بمائة وأربعين كرسيا فيما بعد. ونالت هذه الكراسي عناية خاصة من قبل السلاطين فحبست عليها الأوقاف تحفيزا للطلبة والأساتذة على حد سواء. وما مكتبة القرويين بها إلا خير دليل على المكانة التي صارت لهذا الجامع فيما بعد، مكانة جعلت عددا من العلوم تُدرّس بها سواء من العلوم الشرعية أو الاجتماعية أو حتى الدقيقة منها مثل الطب والرياضيات والفلك وغيرها، بعد أن أُحكم تنظيم التدريس بها بشكل جيد، مما مكنها من استقطاب عدد من العلماء لزيارتها والتخرج منها.

فاس خلال عصر الإمارات الزناتية والصراع الفاطمي الأموي

بعد ضعف الأدارسة، صارت فاس محل نزاع بين الأمويين بقرطبة والفاطميين بإفريقية، الذين ضموا المدينة لهم اعتمادا على بعض قوادهم بالمنطقة، حيث كان موسى بن أبي العافية المكناسي من أبرز قوادهم الذين ساعدوهم على إنهاء دولة الأدارسة طمعا في توليها لهم، إلا أنه لما منع من ذلك، أعلن ولاءه للأمويين بالأندلس.

ابتداء من عام 309هـ/ 921م صارت فاس في قبضة الفاطميين، حيث انتهت الدولة الإدريسية بموت آخر أمرائها الحسن الحجام سنة 311هـ/ 923م، وإجلاء ما تبقى منهم نحو قصر النسر بالشمال، وهناك حاولوا إحياء دولتهم لكن الحضور الأموي أتى على ذلك سنة 375هـ/ 985م، واحتلال فاس أكثر من مرة، ومهاجمة مدن سبتة وطنجة وتيطاوين وقصر مصمودة وأصيلا وحجر النشر، علاوة على الحملات الفاطمية القائمة ضد فاس، مما يعني أن الأدارسة وقعوا ضحية الصراع الفاطميين الأمويين، بل كان مجال سيادتهم ساحة للصراع بينهما.

لقد تمكن قبيلة مغراوة الزناتية منذ عام 367هـ/977م أن تقيم بفاس إمارة لها على يد زيري بن عطية المغراوي، وأن تظل متحالفة مع الأمويين حتى بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، عبر عدد من أمرائها (ودوناس بن حمامة، وعجيسة، وفتوح) الذين أسهموا بالتنافس والنزاع بينهم في استيلاء الأمير الحمادي بلقين بن محمد على فاس لمدة وجيزة قبل أن يتم اغتياله وإعادة المدينة لسيطرتهم.